الباب الثاني

الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ في المجالات العملية (التطبيقية)

الفصل الأول

نماذج تطبيقية من عهد الرعيل الأول

لاشك أن الإسلام لم يكُ في يوم من الأيام يطلق شعارات جوفاء ليس لها رصيد ، إنما الإسلام هو الشريعة التي تتصف بالواقعية ، بحيث لا يحلّق بأتباعه في الفراغ ، إنما يهبط بهم إلىٰ ساحة الواقع ، ليتحدث معهم كنموذج تطبيقي لهذه الأمور التي يطرحها أو يدعو إليها ، وفي السيرة الطاهرة نجد أن النبي ﷺ قد مارس مسألة الدعوة إلىٰ أنحاء العالم ، وفي هذا الدليل الواضح علىٰ ما تتصف به الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ من أنها الدعوة العالمية ، مثال ذلك :

إرساله ﷺ رسلاً إلىٰ الملوك يدعوهم فيها إلىٰ الإسلام ، فقد بعث دحية بن خليفة الكلبي إلىٰ قيصر ملك الروم ، وبعث عبد الله بن حذافة السهميّ إلىٰ كسرىٰ ملك فارس ، وبعث عمرو بن أمية الضمري إلىٰ النجاشي ملك الحبشة ، وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلىٰ المقوقس ملك الإسكندرية ، وبعث

عمرو بن العاص السهميّ إلىٰ جَيْفَر وعياذٍ ابنيْ الجلندى الأزديين ملكيْ عُمان ، وبعث العلاء بن الحضرمي إلىٰ المنذر بن ساوىٰ العبديّ ملك البحرين ، وبعث شجاع بن وهب إلىٰ جبلة بن الأيهم الغسانيّ ، وبعث المهاجر بن أبي أميّة المخزومي إلىٰ الحارث بن عبد طلالٍ الحميري ملك اليمن .

فعن عبد الله بن عباس أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركبٍ من قريش وكانوا تجاراً بالشام ، في المدّة التي كان رسول الله ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفّار قريش ، فأتوه وهم بإيلياء ، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال : أيّكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبيّ ؟ فقال أبو سفيان : فقلت : أنا أقربهم نسباً ، فقال : أدْنُوه منّي وقرّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لهم : إني سائلٌ هذا عن هذا الرجل ، فإن كذبني فكذّبوه ، فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذباً لكذبتُ عنه ، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسبٍ ، قال : فهل قال هذا القول منكم أحدٌ قط قبله ؟ قلت : لا ، قال : فهل كان من آبائه من ملكٍ ؟ قلت : لا ، قال : فأشراف الناس يتبعونه أم

ضعفاؤهم ؟ فقلت : بل ضعفاؤهم ، قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون ، قال : فهل يرتدّ أحدٌ منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا ، قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا ، قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن منه في مدةٍ لا ندري ما هو فاعلٌ فيها ، قال : ولم تمكّني كلمة أدخل فيها شيئاً[1] غير هذه الكلمة ، قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم . قال : فكيف كان قتالكم إيّاه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجالٌ ينال منا وننال منه ، قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصّدق والعفاف والصّلة ، فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب فكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها ، وسألتك هل قال أحدٌ منكم هذا القول فذكرت أن لا ، فقلت : لو كان أحدٌ قال هذا القول قبله لقلتُ رجلٌ يأتسي بقول قيل قبله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملكٍ فذكرت أن لا ، قلت : فلو كان من آبائه من ملكٍ قلت رجلٌ يطلب ملك أبيه ، وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن

---

(١) أي : أنتقصه به .

يقول ما قال فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب علىٰ الناس ويكذب علىٰ الله ، وسألتك : أشراف الناس اتّبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت أن ضعفاءهم اتّبعوه ، وهم أتباع الرسل ، وسألتك أيزيدون أم ينقصون فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتمّ ، وسألتك ، أيرتدُّ أحدٌ سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ، فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته بشاشة القلوب ، وسألتك هل يغدر فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك بما يأمركم فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصّدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدميّ هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارجٌ لم أكن أظنّ أنه منكم ، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشّمت لقاءه[1] ، ولو كنتُ عنده لغسلتُ عن قدمه .

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية إلىٰ عظيم بُصرىٰ ، فدفعه إلىٰ هرقل فقرأه فإذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبد الله ورسوله إلىٰ هرقل عظيم الروم ، سلامٌ علىٰ من اتّبع الهدىٰ ، أما بعد فإني أدعوك بدعاية

---

(١) أي : لاحتملتُ في سبيل لقائه أصعب الأمور .

الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن تولّيت فإن عليك إثم الأريسيين[1] ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤] » .

قال أبو سفيان : فلما قال ما قال ، وفرغ من قراءة الكتاب كثُر عنده الصّخب ، وارتفعت الأصوات وأُخرجنا ، فقلت لأصحابي : لقد أَمِرَ[2] أَمْرُ ابن أبي كبشة ، إنه يخافه مَلِكُ بني الأصفر ، فما زلت موقناً أنه سيظهر حتىٰ أدخل الله عليَّ الإسلام .

وكان ابن الناطور ـ صاحب إيلياء وهرقل سُقُفاً علىٰ نصارىٰ الشام ـ يحدّث أن هرقل حين قدم إيلياء أصبح يوماً خبيث النفس ، فقال بعض بطارقته : قد استنكرنا هيئتك .

قال ابن الناطور : وكان هرقل حَزَّاءً[3] ينظر في النجوم ، فقال لهم حين سألوه : إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم

---

(١) أي : الخدم والخَوَل .

(٢) أي : كثر ونما .

(٣) أي : الكاهن .

ملك الختان قد ظهر ، فمن يختتن من هذه الأمة ؟ قالوا : ليس يختتن إلا اليهود فلا يهمنّك شأنهم ، واكتب إلىٰ مدائن ملكك فيقتلوا من فيهم من اليهود ، فبينما هم علىٰ أمرهم أُتي هرقل برجلٍ أرسل به ملك غسّان يخبر عن خبر رسول الله ﷺ فلما استخبره هرقل قال : اذهبوا فانظروا أمختنٌ هو أم لا ؟ فنظروا إليه فحدّثوه أنه مختتن ، وسأله عن العرب فقال : هم يختتنون ، فقال هرقل : هذا ملك هذه الأمة قد ظهر ، ثم كتب هرقل إلىٰ صاحبٍ له برومية ، وكان نظيره في العلم ، وسار هرقل إلىٰ حمص فلم يَرِمْ[1] حمص حتىٰ أتاه كتابٌ من صاحبه يوافق رأي هرقل علىٰ خروج النبي ﷺ وأنه نبيّ ، فأذن هرقل لعظماء الروم في دَسْكَرَةٍ[2] له بحمص ثم أمر بأبوابها فغلّقت ثم اطّلع فقال : يا معشر الروم ، هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبّت ملككم فتبايعوا هذا النبيّ ، فحاصوا[3] حيصة حُمُر الوحش إلىٰ الأبواب فوجدوها قد غلقت ، فلما رأىٰ هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان ، قال : ردّوهم عليَّ .

---

(١) أي : لم يبرح من مكانه .

(٢) وهي بناءٌ كالقصر حوله بيوتٌ للأعاجم فيها الشراب والملاهي يكون للملوك .

(٣) أي : نفروا .

وقال : إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدّتكم علىٰ دينكم ، فقد رأيتُ ، فسجدوا له ورضوا عنه ، فكان ذلك آخر شأن هرقل[1] .

هذا مثلٌ واحدٌ من الرسل الذين أرسلهم النبي ﷺ وما حملوه معهم من كتب ورسائل يدعون الناس من خلالها إلىٰ الوقوف علىٰ حقائق الدين الحنيف ، ولعمري هذه هي حقيقة الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، وهذه هي العالمية الحقّة أيضاً[2] .

* * *

(١) صحيح البخاري : ٦٦/٤ ، سنن أبي داود : ٣٤٩/٥ ، دلائل البيهقي : ٣٨٤/٤ .

(٢) للتوسع يراجع : تاريخ الطبري : ٦٤٩/٢ ، فتح الباري : ٤٣/١ ، مسند أحمد : ٢٦٢/١ ، طبقات ابن سعد : ٢٥٩/١ ، مستدرك الحاكم : ١٨٧/٤ .

الفصل الثاني

سريان صفة العالمية في كل ما يتعلّق بالإسلام

الشريعة الإسلامية هي الشريعة الوحيدة التي تحمل صفة العالمية في كل جزئياتها : فهي عالمية في جميع ماله علاقة بأنظمتها ، وخاصة النظام الأدبي والتربوي .

وهي عالمية في مبادئها : سواء كانت مبادئ تؤدي إلىٰ الخير ، أو كانت مبادئ اقتصادية ، أو كانت مبادئ سياسية ، أو كانت اجتماعية وما إلىٰ هنالك .

فالعقيدة كلها تحمل صفة العالمية ، والعبادات والمعاملات تحمل صفة العالمية ، بل حتىٰ حلول المشاكل في الشريعة عالمية أيضاً ، وبالتالي فهذه هي الشمولية والعالمية الصحيحة .

وبالتالي فهذا الأمر لا يوجد إلا في الدين الحنيف ، مصداق ذلك بعض الأمثلة التي توضح الفكرة ، وهي ليست إلا جزءٌ صغيرٌ من أمور كثيرة :

ففي أمور العقيدة : يركّز الإسلام علىٰ قضية الحياة الدنيا الفانية والقصيرة والتي ليست إلا دار عمل ولا حساب ، بينما يؤكد علىٰ قضية الحياة الباقية المستمرة إلىٰ ما لا نهاية ، وهي دار الجزاء ، والتي ليس فيها عمل قطّ .

وهذا الأمر يجعل من الإنسان كائناً منضبط السلوك والتصرفات ، من حيث يرىٰ الله سبحانه وتعالىٰ مطلعاً عليه في السرّ والعلن ، لذلك لا يغتصب مال أحد ، ولا يعتدي علىٰ أحد ، ولا يظلم أحداً ، حتىٰ لو كان الآخر كافراً أو مشركاً أو ما إلىٰ هنالك ، لأن قضية إنسانية الإنسان والتي ينادي بها الإسلام ويدعو لها لهي الجامع المشترك لكل أنواع وألوان و . . . البشر ، من حيث إن الخلق كلهم عيال الله ، وأحبّهم إلىٰ الله أنفعهم لعياله ، وما نراه في هذه الأيام من اغتصاب إسرائيل لأراضي فلسطين ، وما قام به الصّرب في بلاد البوسنة والهرسك ، وما يفعله الروس مع الشيشان وهكذا ، لهو دليل عملي علىٰ أن الآخرين الذين لا ينضبطون بضوابط الخوف من الله ومراقبته واللجوء إليه لا يعرفون رحمة ولا رأفة ـ ولو تظاهروا بذلك ـ إنما ينامون علىٰ مناظر القتل وسفك الدماء! ويفرحون عندما يغتصبون ويقتلون ويعتدون علىٰ بني الإنسان!

لذلك فلا أمن في كل أرجاء المعمورة إلا عندما يحمل الجميع فكرة الجزاء في دار الخلود ، حيث النعيم الأبدي لمن خاف مقام ربه ، ونهىٰ النفس عن الهوىٰ ، بينما الشقاء الأبدي لكل من خالف المنهج السويّ .

وعندما يقتنع الإنسان أن كل ما في هذا الكون ما هو إلاّ جزء صغير من ملكوت الله ، لأن الملك كله لله ، بينما العبد الفقير لا يملك من أمره أي شيء إلا أن يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، وما دام الإنسان مستخلفاً علىٰ كل ما أعطاه الله تعالىٰ من نعم وعطايا ، وسيسأل عنه أيضاً كما قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر : ٨] .

والمسألة ـ سواء الفقر أم الغنىٰ ـ ليست إلا من باب الابتلاء ، لذلك فعلىٰ العاقل أن يسعىٰ جاهداً لوضع نفسه في الموضع الذي تكون نتيجته الجزاء الأوفىٰ والحسن ، كما قال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران : ٣٠] .

وبالتالي ففترة الحياة الدنيا بالنسبة للإنسان ليست إلا كقنطرة يجتازها الإنسان إلىٰ عملية الخلود الأبدي هناك ، فهل يضيّع العاقل الحياة الأزلية الباقية بما يستغرقه من أمور الدنيا

الفانية ؟ ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾

[البقرة : ٦١]

لكن مشكلة بعض الناس أنهم ينخدعون بالمظاهر الزائفة فينسون الأمور الحقيقية والحقّة ، فتكون النتيجة ندماً وخسراناً ، قال الله تعالىٰ : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥ـ٦١] .

ولذلك فمهما رأيتَ من مظاهر الفرح والبهجة والسرور باديةً علىٰ وجوه المعرضين عن الله ، نتيجة الأموال الكثيرة ، فاعلم يقينياً أن ذلك لن يدوم طويلاً ، ما دام نهاية الأشياء في الدنيا ، والأنكىٰ من ذلك أن القلب والعقل يعيش الهموم كلها!! وهذا قرار الله تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه : ١٢٤ـ١٢٧] .

واليوم ـ والعالم كله ـ يتخبط في دياجير الظلام ، ويغرق في أمواج الفسوق والدجل والزيف ، ويئن تحت سعار الجنس والفضائح والرذيلة ، لو طرحنا السؤال الأهم : أين نجد الحلّ الوحيد لإنقاذ أبناء البشر ؟!

لابدّ من سفينة النجاة ، بحيث يركب فيها كل من ينضوي تحت لواء التوحيد والعدالة ، وهذه السفينة هي الإيمان بالله واليوم الآخر ، أما إذا ركبت الشعوب رؤوسها ، وأدبرت عن تعاليم السماء ، وظنت أنها تستطيع حماية أنفسها عن طريق اختراعات هنا وتقنيات هناك وما إلىٰ ذلك ، ولعل سفينة نوح عليه السلام هي الرمز لما حدث في الماضي ويحدث اليوم : ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [هود : ٤٢ـ٤٣] .

العالم يعيش الشقاء والحيرة ولا بدّ له من سفينة النجاة ، من سفينة الإيمان بالله واليوم الآخر عسىٰ ألا يكون من الغارقين ، ففي عقيدة الإيمان يتساوىٰ الجميع ، بحيث لا فرق بين حاكم ومحكوم ، إنما القضية أنه لو اعتدىٰ ابن لأمير علىٰ واحدٍ من أقباط مصر ، انطلق النصراني إلىٰ الخليفة

في المدينة المنورة ، ورفع إليه الشكوىٰ ، فما كان من الخليفة إلا أن استدعىٰ أمير مصر وابنه ، ثم أمر الخليفة القبطي أن يقتصّ من ابن الأمير ، ثم أطلقها عمر بن الخطاب كلمات سطرها التاريخ بأحرف من نور علىٰ صحائف من ذهب : متىٰ استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟!

إنهم تعلّموا ذلك من المنهج القرآني الصالح لكل زمان ومكان ، العالمي في تطبيقاته وشرائعه وتوجيهاته ، قال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٨] .

وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء : ١٣٥] .

هذا نموذج من جانب العقيدة ، أما في جانب العبادات الإسلامية ، فلنأخذ جانب الصلاة مثلاً :

شاءت حكمة الله تعالىٰ أن يكون توزيع الصلاة علىٰ أوقات النهار لصالح الإنسان ، بحيث ما إن يستفتتح نهاره ـ لا باللعب

والنميمة و . . . ـ إنما بذكر الله من خلال الوقوف بين يدي الله ، فمنذ الصباح يقف المسلم بين يدي ربه ـ في الصلاة ـ يدعوه ويقرأ آياته الحكيمة ويبث له شكواه ويشعر بطمأنينة العبد الفقير الضعيف عندما يعلّق أمره كله بالخالق العظيم المنعم الرازق ، وهو الله سبحانه وتعالىٰ .

ثم ينطلق إلىٰ عمله ، وقبيل استغراقه بأمور الدنيا يأتيه نداء : الله أكبر ليهرع إلىٰ بيت الله ، ليعود توازن نفسه إليه ، وإلا فما أصعب طغيان الدنيا علىٰ جانب الآخرة ، وهكذا صلاة العصر ثم صلاة المغرب ، وحينما يودّع النهار ليخلد إلىٰ النوم يقف بين يدي ربه داعياً حامداً ، تالياً للقرآن ، ساجداً راكعاً بين يدي الله ، معترفاً بضعف حوله وقوته أمام الله سبحانه وتعالىٰ .

وإذا حافظ المسلم علىٰ الصلاة وأقامها وأداها علىٰ الوجه الصحيح ، كانت الضابط القوي لجميع تصرفاته ، وإلا كيف يغش الآخرين وبعد قليل يقف بين يدي الله ؟ وكيف يخدع أصدقاءه أو أعداءه وقبيل قليل كان في بيت الله ؟ وكيف يظلم زوجه والأولاد وهو يقرأ في القرآن آياتٍ تحضّ علىٰ العدل وما إلىٰ هنالك ؟ وكيف يتبع شهواته وغرائزه ، ويفعل ما يشاء

دون قيد أو شرط وهو يعلم ما هي النتيجة ؟!

أبداً « فمن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له » ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾

[العنكبوت : ٤٥]

وهكذا تجعل الصلاة الإنسان منسجماً مع الكون ، لأن الكون كله يسجد لله ، أما السجود الرائع فهو سجود العقل والقلب والروح ، بحيث تصبح حركات المصلي وسكناته ذرات تدور في فلك الكون الخاشع لله ، وبالتالي يصبح المسلم ذرة تدور في فلك الله : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢] .

وهذا كله يعطي الصلاة طابع العالمية ؛ لأن مبادئها وأنظمتها وقوانينها ونتائجها لا تعود علىٰ الفرد وحده ، إنما تعود إلىٰ جميع من حوله .

وأما الزكاة : فتشتمل على كل الأموال ، سواء كانت ظاهرة : كالزروع والمواشي والركاز ، أو كانت باطنة وهي التي يستطيع إخفاءها عن أعين الناس كالذهب وعروض التجارة ، بل قال العلماء المعاصرون : وتجب الزكاة في المصانع المعدّة للإنتاج ، وفي وسائل النقل (كالطائرات

والسيارات) وتجب في المباني والعمارات وما إلىٰ هنالك ، وصنّفوها تحت بند (المستغلات) ، وكذلك تجب في المهن الحرة ورواتب الموظفين ، أي علىٰ كل شيء زكاة ، وبهذا تستطيع الزكاة أن تكفي الفقراء والمساكين وما إلىٰ هنالك ، ذلك لأن الزكاة عندما طُبقت علىٰ حقيقتها في عهد الفاروق عمر ، وفي عهد حفيده عمر بن عبد العزيز ، لم يبق هناك فقير ولا صاحب حاجة ، وفاضت الأموال إلىٰ حدّ عجيب[1] ذلك لأن الله تعالىٰ قد ضبط المسألة إلىٰ حد عجيب ، فالتوزيع ليس شيئاً مزاجياً ولا خاضعاً لنبي أو حاكم أو قانون ما ، إنما هو قانون إلٰهي ثابت في القرآن الكريم ، قال الله تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٦٠] .

وهكذا استطاع الإسلام العالمي أن يقضي علىٰ الشحّ وحبّ كنز المال ، وقضىٰ علىٰ أنانيات الأثرياء واستبدلها بالإيثار ، وقضىٰ علىٰ الفوارق الطبقية بين أفراد المجتمع ، وحجّم عدد

---

(١) للتوسع : سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم : ١١٦ ، الأموال : ٣٠٨ ، البداية والنهاية : ٧/ ٢٠١ .

المتسولين ، وقضىٰ علىٰ الشحناء والمنازعات ، وحلّ مشاكل العزوبة . . . كل ذلك كان عن طريق تطبيق فريضة الزكاة حسب الأصول ، وفي هذا الوقت إذا طبقت الزكاة فإنها ستحقق النتائج نفسها ، وهكذا يثبت عالمية الشريعة وصلاحيتها لكل وقت وحين[1] .

أما الحج فهو المؤتمر السنوي العالمي ، والذي يحضره الناس من كل حدب وصوب ، يتوحّد الناس فيه : فالقبلة واحدة ، والطواف والسعي والوقوف ورمي الجمار والنحر والتلبية لها أماكن خاصة ، والزمان والمكان واحد ، بل والهدف من الحج واحد ، إنه طريق الخير والبر ، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

الكل يهتف : لبيك اللهم لبيك ، والكل يلبس لباساً يحمل البساطة واللون الرائع ، والكل متساوون : لا فرق هناك بين حاكم ومحكوم ، ولا بين غني وفقير ، إنما الجميع عباد لله وحده : « لا فضل لعربي علىٰ عجمي إلا بالتقوى » ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات : ١٠] .

---

(١) للتوسع يراجع : المسيرة التاريخية لتطبيق فريضة الزكاة ، للمؤلف : ٦٤٠ـ٦٨٥ .

وهكذا في الأمور التي تتعلق بالفرد ، نرىٰ أن الإسلام رسم للفرد خطوطاً عريضة تحمل في طيّاتها كل أمور السعادة ، فالواجبات واضحة والحقوق بيّنة ، ولابدّ من التوازن بين أمور الجسد وأمور الروح ، كل ذلك عن طريق الوسطية والوضوح والاعتدال .

وأما الأمور التي تتعلق بالمجتمع ، فالإسلام وضع لها لوائح تقوم علىٰ العدل والحق!! لذلك اهتم الإسلام بالمجتمع الصغير وهي الأسرة ، ودعا إلىٰ إشاعة الرحمة والرأفة والمعاونة في ظلالها ، قال تعالىٰ :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم : ٢١] .

ثم يوسّع الإسلام الدائرة أكثر ، لينادي بالتكافل الاجتماعي والتكامل الاقتصادي بين جميع أفراد المجتمع ، بل بين جميع أفراد الإنسانية ، لأنه لا أحد مسؤول عن تصرّفات الآخرين ، إنما الإسلام ينادي أن يعطىٰ الفقراء من الزكاة وبيت المال حتىٰ لو كانوا مسيحيين في ظل الخلافة الإسلامية ، والدليل علىٰ ذلك إعطاء عمر رضي الله عنه رجلاً فقيراً من أهل الذمّة ، موجهاً إلىٰ عمل رائع : ما أنصفناك أيها

الشيخ ، أكلنا شبيبتك ، ثم نضيعك هرماً!!!

وأما مسألة علاقة الإسلام مع الآخرين ، فإن كل ذلك يثبت عالمية الإسلام ، بحيث إن الخط العريض : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

ولا مشكلة في التعامل مع الآخرين : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة : ٨] .

﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء : ٩٤] .

فلا محاباة مع زيد ضد عمرو ، إنما أفضلية الواحد بقدر ما يقدمه من نفع وخير لنفسه وللآخرين ، ورضي الله عن عمر عندما قال : لو جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بلا عمل ، لكانوا أحق بمحمد ﷺ منا يوم القيامة!!

وهكذا يتبيّن في كل جزئيات هذا الدين الحنيف أنه العالمي الصالح لكل زمان ومكان .

* * *